أصول حملة فاشودة

تأليف رينوڤان

PIÉRRE RENOUVIN : *Les Origines de l'Expédition de Fachoda*
Revue Historique (72 année - J. CC Octobre - Décembre 1948

كتب الأستاذ رينوڤان — أستاذ التاريخ الحديث فى السربون وعضو المجمع العلمى الفرنسى — عن حملة فاشودة كيف قامت ، والظروف التى مهدت لقيامها ، والمشاريع التى سبقتها ، مهتما بوجهة النظر الفرنسية قبل كل شيء .

وهذا الموضوع له أهميته الكبيرة بلا ريب من حيث الناحية الاستعمارية العامة ، والتنافس الإمبريالى بين فرنسا وإنجلترا خلال السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر . وله قيمة كبرى من حيث ارتباطه الوثيق بالمسألة المصرية ومسألة وادي النيل . وأصبح اسم فاشودة ، هذه القرية الصغيرة على النيل الأبيض علماً بين وقائع التاريخ العالمى المعاصر ، ورمزا لمنتهى ما وصلت إليه المنافسة الاستعمارية بين إنجلترا وفرنسا ، ودليلا فى آخر الأمر على ما تستطيعه القوة البحرية من الفصل الحاسم فى الأمور والأزمات الدولية ، ونهاية عملية حقيقية لموقف المعارضة القوية الذى وقفته فرنسا بإزاء الاحتلال الانجليزى لمصر .

ولذا فالموضوع مهم من حيث التاريخ الدولى العالمى — ولكنه يهم المصريين بصفة خاصة لما كان له من أثر فى تحديد مصير مصر السياسى لمدة ربع قرن من الزمن تقريباً ولما كان له من أثر فى تقوية دعائم النفوذ الإنجليزى فى وادى النيل .

ولقد ظلت دراسة ذلك الموضوع من الناحية السياسية إلى السنوات القليلة الماضية قائمة على ما كتبه المعاصرون وما خلفه الذين اشتركوا فى مغامرة فاشودة من أمثال مارشاند وكتشنر ، ولذا كانت دراسة ذلك الموضوع من الناحية التاريخية العلمية دراسة مشوهة ناقصة يظهر فيها روح التحيز القومى وتمجيد الوطن سواء أكانت هذه الدراسة إنجليزية أو فرنسية ، فهى دائماً تميل ناحية معينة وإن كانت كلها لا تستطيع إخفاء النهاية التى انتهت إليها حادثة فاشودة بانتصار

السياسة الإنجليزية وإذلال فرنسا إذلالاً لا يماثله فى قسوته وعنفه إلا إذلال سيدان قبل ذلك ببضعة عشر عاماً .

ويؤكد رينوڤان فى دراسته القيمة هذه الحقيقة السالفة الذكر ، ويرى أن الدراسات لذلك الموضوع حتى سنة ١٩٣٦ غير كاملة إذ تنقصها الوثائق التى ظلت إلى هذه السنة سراً فى وزارة الخارجية الفرنسية . ويرى رينوڤان أن نشر الوثائق الفرنسية السياسية Documents Diplomatiques Francais قد ألقى ضوءاً جديداً على حملة فاشودة : كيف بدأت والظروف التى مهدت لها .

ولكنّا نستطيع هنا أن نوجه النظر إلى مسألة مهمة لم يشر إليها رينوڤان فى بداية بحثه أو لم يرد الإشارة إليها ، وهى : هل نشر فى مجموعة الوثائق السياسية هذه كل الوثائق السياسية الموجودة فى وزارة الخارجية الفرنسية ؟ إن المؤرخ المطلع على هذه المجموعة ليشعر بما لها من قيمة كبيرة بلاشك ، ولكنه يشعر فى كثير من الأحيان أن هناك وثائق قد استبعدت استبعاداً ، وأخرى قد حذفت أجزاء منها ، وأخرى قد عدلت بعض التعديل . فليس كل ما تبودل من رسائل ومذكرات وتقارير ووثائق سياسية يصح نشره أو عرضه على الجمهور ، حتى على جمهور الباحثين من رجال السياسة أو رجال التاريخ ، فهناك مسائل سياسية قومية ومجاملات شخصية وأمور سرية لا ينبغى أن يطلع عليها إلا خاصة الخاصة ولا ينبغى أن تلمحها عين الأجنبى .

وكذا لا يمكن مطلقاً الاعتماد على مجموعة واحدة من الوثائق السياسية ، فمثلا لا يمكن للباحث التاريخى الاعتماد على الوثائق الفرنسية فحسب فى أى موضوع من مواضيع السياسة الدولية قبل الحرب الأولى العالمية ، بل يجب النظر فى الوثائق التى نشرتها الحكومات الإنجليزية والألمانية والنمساوية ، بل الرجوع — إذا كان ذلك ممكناً — إلى دور الوثائق نفسها فى عواصم الدول الأوروبية الكبرى التى يعتقد الباحث التاريخى أو يظن أن لها اهتماماً بهذه المسألة بالذات .

ثم نحن نعرف بعد ذلك أن كثيراً من الوثائق ذات الأهمية فى موضوع معين قد تتلف عمداً وقد تفقد أو تضيع من دور الوثائق نفسها ومن وزارات الخارجية والمستعمرات ، وهنا يصبح إتمام الحلقات المفقودة من الأمور الشاقة التى ترهق المؤرخ ، وهنا تتدخل عناصر جديدة فى البحث فى تصوير الوقائع وتفسيرها ، عناصر لا شعورية ربما لم يستطع الباحث التخلص منها كعناصر القومية والميول الخاصة .

وعلى ذلك نستطيع إذن أن نقول إن أية دراسة تاريخية علمية حقيقية لمسألة فاشودة — مبدئها ومنتهاها — لا يمكن أن تتحقق إلا إذا فتحت دور الوثائق الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والبلجيكية والمصرية أبوابها للباحثين ووضعت تحت أيديهم كل ما لديها من وثائق ومستندات .

على أن ما ذكرنا لا يمنع من أن نكرر ونقول متفقين مع رينوڤان بأن نشر الوثائق الفرنسية السياسية قد ألقى ضوءاً جديداً وأضاف كثيراً من المعلومات ووضح كثيراً من المعالم التى كانت لا تزال غامضة أو موضع الحدس أو التخمين عن الظروف التى أدت إلى هذه البعثة ، بعثة مارشاند أوحملة مارشاند أوحملة فاشودة ، وانتهت إلى مقابلة فاشودة المشهورة بين كتشنر ومارشاند .

* * *

يرى رينوڤان أنه يجب الرجوع إلى سنة ١٨٩٣ حتى يمكن فهم الظروف التى نشأت عنها حملة فاشودة ، والواقع أنه يجب الرجوع إلى أبعد من ذلك ، إلى النزاع العنيف الذى قام بين الدولتين الكبيرتين إنجلترا وفرنسا من أجل المسألة المصرية وخاصة بعد الاحتلال الإنجليزى لوادى النيل فى سنة ١٨٨٢ ، وإلى الثورة الدرويشية فى السودان التى انتهت بزوال الحكم المصرى من هذا الجزء من وادى النيل ، وإلى فشل فرنسا فى محاولاتها إرغام الإنجليز على الجلاء عن مصر أو تعيين موعد قريب للجلاء .

فوجود الإنجليز فى مصر وحكم الدراويش فى السودان ، كل هذا أثار المطامع الفرنسية والبلجيكية فى السودان وأعالى النيل وأواسط إفريقية ، ثم إن نمو روح الأمبريالزم السياسى والاقتصادى عقب مؤتمر برلين (سنة ١٨٧٨) وجه اهتمام الدول الاستعمارية إلى إفريقية وإلى تقسيمها إلى مناطق نفوذ ، وخاصة الجهات التى لم تخضع بعد لدول متحضرة أو حكم منظم قوى . وقامت اتفاقات ومؤتمرات دولية أوربية لتحديد مناطق النفوذ للدول المختلفة المتنازعة ، وأهمها الاتفاق بين إنجلترا وألمانيا فى سنة ١٨٩٠ ، ذلك الاتفاق الذى ينص على أن تقع المناطق التى تشمل أعالى النيل — من حدود الحبشة إلى أوغندا إلى خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو — فى دائرة النفوذ الإنجليزى .

على أن التفكير الحقيقى من ناحية فرنسا — كما يقول رينوڤان — لإرسال حملة إلى السودان المصرى كان فى سنة ١٨٩٣ ، ويرجع إلى دلكاسه Delcasse

الذى كان فى هذه السنة وكيلا لوزارة المستعمرات الفرنسية ، فهو الذى طلب من مونتيل Monteil قيادة بعثة إلى السودان المصرى ورفع العلم الفرنسى على فاشودة ، فكأن التفكير إذن فى حملة فاشودة يرجع قبل كل شىء إلى رجال الاستعمار ورجال وزارة المستعمرات الفرنسية ، فهم الذى فكروا فى ذلك المشروع — كما يؤكد رينوڤان بناء على دراسته للوثائق الفرنسية — وهم الذين أعدوا له وهم الذين أقنعوا رجال وزارة الخارجية الفرنسية بضرورة قبوله وتنفيذه ، على أننا نجد لرجال وزارة الخارجية الفرنسية أثراً كبيراً فى حث رجال وزارة المستعمرات على الاعتدال وعلى تنفيذه بطريقة تثير أقل ما يمكن من المصاعب الدولية . وبالرغم من كل ذلك فلقد أدى تنفيذ ذلك المشروع فى آخر الأمر إلى أزمة دولية كادت تنقلب إلى كارثة لولا تراجع فرنسا على أعقابها حين تأكدت أن البحرية الإنجليزية عازمة على العمل وأنها لا تقهر .

قام إذن مشروع مونتيل على أساس توسع الفرنسيين من غرب إفريقية وعلى أساس أن تقوم بتعضيد هذه المحاولة محاولة ثانية وفى نفس الوقت من الحبشة . ولكن قامت فى هذه السنة كما يرى رينوڤان صعوبات جعلت تنفيذ المحاولتين أمراً غير مستطاع ، من هذه الصعوبات ضرورة فتح الطريق بين المناطق الفرنسية فى غرب إفريقية والسودان ، وبعض هذه الطرق كان فى يد البلجيكيين .

وينتقل رينوڤان بعد ذلك إلى عهد جبرييل هانوتو فى وزارة الخارجية الفرنسية وما قام بينه وبين الانجليز من مفاوضات بشأن أعالى النيل وما كان له من أثر فى إيقاف تنفيذ مشروع مونتيل . فلقد كانت سياسة هانوتو ترمى إلى توكيد علاقات الصداقة مع إنجلترا . ولكن عدم نجاح المفاوضات بين هانوتو وإنجلترا ، وتصريحات پرشيه Percher ودى برازا Brazza التى أثارت الشكوك فى إنجلترا ثم خطبة سير إدورد جراى المشهورة[1] ، كل ذلك أدى إلى سير وزارة

(١) التى قال فيها : « لقد سئلت عما إذا كانت هناك حملة فرنسية فى طريقها من غرب افريقية ترمى إلى التوغل فى وادى النيل واحتلال بعض النقط على ذلك النهر . . . لا تعلم وزارة الخارجية رسمياً بحملة من هذا النوع . . . وأنا أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إننى لا أعتقد أن مثل هذه الشائعات تستحق التصديق لأن مسير حملة فرنسية سوف لا يكون أمراً غير متوقع فحسب . . . ولكن يجب أن تعرف الحكومة الفرنسية جيداً أن مثل هذا العمل غير الودى ستعتبره انجلترا عملا عدائياً موجها نحوها » .

المستعمرات الفرنسية فى إعداد مشروع ليوتارد Liotord وإلى موافقة هانوتو عليه . تقرر أن تقوم بعثة ليوتارد فى ٢٥ أكتوبر ١٨٩٤ وكان ينتظر أن تصل إلى أعالى النيل فى مدى عام .

ويقول رينوڤان إن بعثة ليوتارد لم تصل إلى غرضها المنشود ، فخطبة سير إدوارد جراى كان لها وقعها الفعال ، وذلك بالرغم من أن الفرنسيين أعلنوا أن مسألة أعالى النيل لم يتم فيها الفصل نهائياً ، وأن لفرنسا الحق فى إرسال بعثات إلى كل المناطق التى لم تخضع بعد لأية دولة أوربية أخرى .

وينتقل رينوڤان بعد ذلك إلى تجدد مشروع ليوتارد فى شكل مشروع لا يختلف عنه هو مشروع مارشاند ، فالمسألة ثارت من جديد فى وزارة المستعمرات الفرنسية ، ومارشاند يرى بعد أن استقرت علاقات فرنسا مع البلجيك بشأن الكنغو أن تتوسع فرنسا وأن تمد نفوذها إلى نهر النيل ، ويرى فى نفس الوقت ضرورة اشتراك وزارة الخارجية فى هذا الأمر لأن ذلك التوسع قد يؤدى إلى حادث تكون له صبغة دولية . ولم يكن غرض مارشاند كما يقول رينوڤان هو احتلال السودان المصرى وضمه إلى فرنسا ولكن :

"Prendre des gages de restitution collective à l'Egypte des territoires ayant formé le Soudan égyptien"

وكذا وضع إنجلترا فى :

"Dans la nécessité d'accepter, sinon de provoquer elle-même, la réunion d'une conférence europèenne,au sein de laquelle serait discuté et fixé le sort réservé au Soudan égyptien, c'est-à-dire à la vallée du nil."

وللوصول إلى ذلك الغرض يكفى إرسال بعثة ليس لها طابع حربى ترفع العلم الفرنسى على فاشودة ، فغرض مارشاند النهائى إذن إرغام إنجلترا على الجلاء عن مصر . ولم يبد هانوتو فى وزارة ريبو Ribot ولا خليفته فى وزارة الخارجية برتلو Berthelot ولا ليون بورجوا Leon Bourgeois ولا هانوتو نفسه فى وزارة Meline اعتراضاً على بعثة مارشاند .

ولا ريب أن لبحث رينوڤان قيمة كبيرة فى كشف اللثام عن كثير من الحقائق والظروف التى أدت إلى حملة فاشودة ، بل ويمكن اعتباره أول بحث

جدى علمى من نوعه معتمد على ما ظهر إلى الآن من وثائق سياسية فرنسية سواء أكانت هذه الوثائق خاصة بوزارة الخارجية الفرنسية أو وزارة المستعمرات .

محمد مصطفى صفوت